

الايكولوجيا السياسية: حقل جغرافي جديد يتشكل

الدكتور عباس غالي الحديثي

قسم الجغرافيا- كلية التربية/ ابن رشد /جامعة بغداد

الملخص

يمثل البحث محاولة لتكوين اطارا نظريا لحقل جديد يتشكل تناوله الجغرافيون منذ السبعينيات من القرن العشرين وبشكل محدد ومركز منذ الثمانينيات من ذلك القرن وهو الايكولوجيا السياسية الذي يربط قضايا البيئة بالبنى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على مستويات مكانية مختلفة. الا ان ما كتب باللغة العربية حول هذا الحقل يمكن ان نقول عنه، وبدون تحفظ، غير موجود. وقد وضع الباحث هذا الحقل ضمن الجغرافيا السياسية وفقا لاعتبارات عدة. ضم البحث تعريف الايكولوجيا السياسية ومراحل تطوره، كذلك طرق ومناهج البحث فيه. كما تم طرح اجندة لدراسات لاحقة.

Abstract

This research represents an attempt to construct framework for new field that geographers studied since 1970's that is political ecology, which is relates environmental issues with the social, political and economical structures at different spatial levels .

But the written about political ecology in Arabic language still is nothing. The researcher put this new field within political geography according to some considerations.

The contents of research contains the definition of political ecology, stages of its development, methods and approaches in this field. Also, presents an agenda for future studies.

مقدمة

اصبحت قضية البيئة وتفرعاتها والعواقب المترتبة عليها ومستويات تحليلها من بين اهم ما يشغل الاهتمام الانساني على المستويين الرسمي والشعبي ومن قبل مختلف حقول المعرفة ومستويات صناعات القرار. وفي الوقت ذاته، فأن تطور حقول المعرفة وتداخلها في كثير من الحالات لمعالجة المشكلات التي تواجه المجتمعات المحلية والوطنية والعالمية قد قاد الى بروز وتشكل حقول معرفية جيدة، وهذا ما يحصل الآن لحقل الجغرافيا الذي تدفع به ضغوطات العولمة بجوانبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية لأن يعالج قضايا البيئة من منظور مختلف لاسيما ما يتعلق بالقواعد الشعبية Grassroots مثل الفقر، وتآكل القاعدة المواردية، والصراعات البيئية، واللاجئين البيئيين، والقابلية على التكيف الهيكلي

وغيرها يضاف الى ذلك، التطورات التي شهدتها الجغرافيا من ظهور فلسفات وتقاليد Traditions جديدة مثل الفلسفة الراديكالية Radical والنقدية Critical ، والانسانية Humanistic قد دفعت بشكل كبير الى ظهور تخصصات وحقول معرفية جغرافية جديدة منها الايكولوجيا السياسية Political Ecology الذي أظنه الابن الشرعي الثالث للجغرافيا السياسية - بعد الجيوبولتكس وجغرافية الانتخابات - والذي يمكن تعريفه كحقل جغرافي بانه ذلك العلم الذي يربط قضايا الايكولوجيا وفواعلها بالاقتصاد السياسي بمعناه الواسع من منظور مكاني.

من هنا يمكن تحديد هدف البحث في بيان ما يعنيه الايكولوجيا السياسية اصطلاحاً وما هي المراحل التاريخية التي مر بها وعلاقته بالعلوم الاخرى ثم بيان مناهجه. اما اهمية البحث فتسير باتجاهات متعددة اهمها انه يمثل اول محاولة باللغة العربية لتحديد هذا الحقل الجغرافي الجديد مفاهيمياً ومنهجياً، ثم ان البحث يفتح آفاقاً للباحثين وطلبة الدراسات العليا لتطوير وتطبيق مفاهيم ومناهج هذا الحقل المعرفي وتحديد مدى نفعيته. على ضوء ما سبق فان هيكل البحث ستكون من ثلاثة اجزاء رئيسية هي: أولاً تحديد تعريف مفهوم الايكولوجيا السياسية، وثانياً بيان تطوره التاريخي وعلاقته بالعلوم الاخرى، وثالثاً تشخيص الطرق والمناهج التي تتبع في دراسة الايكولوجيا السياسية. بقي ان نشير الى ان هذه المحاولة جديرة بالاهتمام والتطوير لاسيما وان العراق يعد مجالاً خصباً لتطبيق مفاهيم واسس الايكولوجيا السياسية بما يخدم صناع القرار على مختلف المستويات المكانية من اجل ترشيد ذلك القرار خاصة وان هذا الحقل المعرفي يعد من الحقول المعرفية المتداخلة والمتعدد المعارف Interdisciplinary and Multidisciplinary مما يسمح بتوضيح وتجدير نفعية الجغرافيا ووظيفتها الاجتماعية التي عانت لفترة من الاهمال والتهميش.

تعريف الايكولوجيا السياسية

يعد تحديد المفاهيم وصياغتها الدقيقة من أهم مرتكزات تطور أي حقل معرفي وتقدمه بين الحقول الأخرى. وربما كان من بين اسباب عدم تطور الجغرافيا بما يكفي وكثرة الاجتهادات فيها هو ضعف ضبط المفاهيم فيها وضعف تحديد ميدانها. وبقدر تعلق الامر بموضوع البحث وحدوده فان تحديد مفهوم الايكولوجيا السياسية يمكن ان يعد خطوة اساسية باتجاه تحديد ميدانه ووضعها في سياقه العام والخاص بما يمكن معه معرفة اتجاهات تطوره. وهنا تبرز العديد من الصعوبات اولها انه حقل معرفي متعدد المعارف ومتداخل المعارف Multidisciplinary and Interdisciplinary مما قاد إلى تعدد تعاريفه وتعدد طرق

ومناهج البحث فيه كما سيتضح لاحقاً، وثانيها حداثة الحقل إذ يمكن القول، بقليل من التحفظ، ان عام ١٩٨٥ يمثل بداية وضع حجر الأساس للايكولوجيا السياسية وهو تاريخ صدور كتاب Blaikie المعنون: (١)

(The Political Ecology of Soil Erosion in Developing Countries)

وعبر استعراض ما كتب حول الايكولوجيا السياسية وتطورها، وحول الايكولوجيا بشكل عام ثم فرز عدة تعاريف للايكولوجيا السياسية هي كالاتي:
أولاً: بعض الكتاب يعرفون الايكولوجيا السياسية على انها فحص المشاكل البيئية كتفاعل ظاهرتي Phenomenological Interaction للعمليات البيوطبيعية، والحاجات البشرية، والنظم السياسية. وجاء هذا في تعريف Blaikie and Brookfield إذ ذكرا بان الايكولوجيا السياسية توحد اهتمامات الايكولوجيا والاقتصاد السياسي بتعريفه الواسع. وهذه تضم معا الجدل بين المجتمع والموارد، وكذلك داخل الطبقات والمجموعات ضمن المجتمع نفسه (٢).

ثانياً: هناك (سياسة الايكولوجيا Politics of Ecology)، بمعنى الفاعلية السياسية لصالح البيئية الخضراء العميقة Deep Green Environmentalism ونقدها للحداثة والراسمالية. جاء هذا في تعريف Atkinson للايكولوجيا السياسية التي هي مجموعة من الافكار والمسائل النظرية من ناحية، وحركة اجتماعية يشار لها كحركة ايكولوجية أو اخيراً تسمى الحركة الخضراء (٣).

ثالثاً: هناك استعمال للايكولوجيا كاستعارة Metaphor للارتباطات الداخلية للعلاقات السياسية. هذه الاستعارة تم تبينها من قبل اول كتاب الايكولوجيا السياسية في عنوانه (الاقاليم العالمية والنظام العالمي: دراسة في الايكولوجيا السياسية International (Regions and International System: A study in Political Ecology) لمؤلفه Bruce M. Russett عام ١٩٦٧ وحتى الكتاب نفسه لم يناقش تغير أو صيانة البيئة البيوطبيعية. فقد كتب Russett:

انا قدمت مصطلح (دراسة في الايكولوجيا السياسية) لهذا الجزء وكما عرفت الايكولوجيا على انها علاقة الكائنات أو مجموعات الكائنات الحية ببيئتها، فاني حاولت اكتشاف بعض العلاقات بين النظم السياسية وبيئتها الاجتماعية والطبيعية (٤).

وعلى الرغم من ان هذا الكتاب الاصلي لم يناقش الصيانة البيئية، فان الكتب التالية حول البيئة تبنت نفس الاستعمال لمصطلح الايكولوجيا السياسية، فمثلاً، كتب اندرسن

Anderson: الايكولوجيا البيئية تشير إلى التفاعل والاعتماد المتبادل بين التربة، والهواء، والمياه، والمزارعون. أيضاً تشير الايكولوجيا السياسية إلى الاعتماد المتبادل الفعال بين مجالات: الفرد، والمجتمع المحلي، والعالم الطبيعي، والمجتمع القومي.

رابعاً: الايكولوجيا السياسية عرفت على أنها تحليل أكثر دقة للنقاشات الماركسية حول المادية، والعدالة، والطبيعة في المجتمعات الرأسمالية، مع نظرة إلى تحقيق توزيعاً أفضل للحقوق والموارد.

فالإيكولوجيا السياسية، كما ينظر لها ماركسياً، تقوم على نقد. ومن ثم تحليل- نظام الأشياء الموجودة. وبشكل أكثر تحديداً فإن الماركسيين والخضر يركزون على قطاع محدد جداً للعالم الواقعي: علاقة الإنسان- الطبيعة، وبشكل أكثر دقة، العلاقات بين الناس المرتبطين بالطبيعة (أو ما سماه ماركس القوى المنتجة)^(٥).

خامساً: ان هناك استعمال للإيكولوجيا السياسية للإشارة في مصطلحات عامة إلى سياسة المشاكل البيئية Politics of Environmental Problems بدون مناقشة محددة للإيكولوجيا Ecology. مثلاً Bryant يصف الايكولوجيا السياسية كفهم للقوى السياسية، وظروف وعواقب التغيير البيئي. ويمكن ان يتضمن دراسات الاثار البيئية من مصادر مختلفة، ومظاهر موقع معين للتغيير الايكولوجي، وتأثير التغيير البيئي على العلاقات الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية^(٦). وفي كتاب Bryant and Blaikie الصادر عام ١٩٩٧ عرفا الايكولوجيا السياسية على أنها مناقشة تركز على التفاعلات بين الدولة، والفواعل غير الدولة، والبيئة الطبيعية، بينما السياسة البيئية Environmental Politics تهتم بدور الدولة عموماً^(٧).

عموماً يمكن تعريف الايكولوجيا السياسية على أنه ميدان معرفي يسمح للباحثين فهم التفاعلات المعقدة بين المجتمع والبيئة ضمن حقل الجغرافية، ويسلط الضوء على العوامل Factors، والفواعل Actors، والهيئات Agencies، والمؤسسات Institutes، والدوافع التي تلعب دوراً مهماً في الاهتمامات البيئية المعاصرة على المستويات المكانية المحلية والوطنية والعالمية.

مراحل تطور الايكولوجيا السياسية وعلاقته مع العلوم الأخرى

نادراً ما تم الاهتمام بتاريخ الايكولوجيا السياسية أو موقعه بين العلوم. ومن جانب آخر فإن الاهتمام كان ينصب في هذا الحقل على تطبيق مفاهيم ومبادئ الاقتصاد السياسي، مما قاد إلى تاخر ظهور هذا الحقل المعرفي ومن ثم تاخر اهتمام الجغرافيين به لاسيما وان فهم أهمية البحث في أي حقل يتناسب طردياً مع تطور ذلك الحقل.

يمكن ان نحدد المراحل التي مر بها تطور الايكولوجيا السياسية كالاتي^(٨):

المرحلة الاولى:

خلال المرحلة الاولى للايكولوجيا السياسية التي يمكن ان يقال انها تمتد منذ اواخر السبعينيات حتى منتصف الثمانينات من القرن العشرين، اهتم الباحثون بالماركسية الجديدة التي انتقدت العديد من الايكولوجيين الحضاريين Cultural Ecologists وكتاب المalthوسية الجديدة التي مثلها بشكل واضح تقرير نادي روما حول (حدود النمو) الصادر عام ١٩٧٢^(٩). لقد حاول الباحثون في هذه المرحلة شرح الصراعات البيئية المحلية في ضوء العلاقات الطبقيّة واستخراج الفائض المرتبط بالإنتاج الراسمالي العالمي. وكان يتم مناقشة ادوار مختلف الفواعل وان بشكل مبسط (دول- اعمال- مزارعون). فالدولة مثلا ينظر اليها ليس أكثر من وكيل للراسمال العالمي، وانها تستغل المزارعين لصالح هذا الراسمال.

المرحلة الثانية:

تمتد هذه المرحلة من منتصف الثمانينات إلى منتصف التسعينيات حيث ظهر في هذه المرحلة كتاب Brookfield and Blanket عام ١٩٨٧ بعنوان (Land Degradation and Society) الذي يعد اول من اوجد تعريفا للايكولوجيا السياسية، اضافة إلى كونه تعمق في التحليل الماركسي للتاكل الارضي. كما ظهرت في هذه المرحلة اول دراسة تضع اجندة جغرافية للايكولوجيا السياسية من قبل Raymond LBryant عام ١٩٩٢ وغيرها من الابحاث التي حاولت بيان القوة المحتملة للفواعل التي تضمها الصراعات البيئية. كما تم ربط الايكولوجيا السياسية بالتطورات في تنظيرات الحركات الاجتماعية Social Movements. وظهرت بوادر الكتابات الانثوية الايكولوجية Ecofeminist التي فحصت كيف ان علاقات القوة ضمن الاسرة تؤثر في السيطرة على الارض والموارد الطبيعية، والعمل، وراس المال.

المرحلة الثالثة:

يمكن تحديد هذه المرحلة بعد ان تجذرت ظروف ومؤسسات العولمة منذ منتصف التسعينيات من القرن العشرين لاسيما بعد انشاء منظمة التجارة العالمية عام ١٩٩٥ ، واحداث سيائل وغيرها المتحدية للعولمة Anti-Globalization ، والاهتمام الكبير بالمحليات Localities* وتعمقت الدراسات الانثوية الايكولوجية والبنوية وما بعد البنوية، اضافة إلى ظهور بدايات فكر ما بعد الحداثة التي اهتمت بدرجة رئيسة بالطرق التي تتوزع فيها المعرفة والقوة بين الفواعل في الايكولوجيا السياسية لاية منطقة مع ارتباطها بعمليات الإنتاج على

النطاق العالمي أي محاولة ربط عمليات الإنتاج على المستوى المحلي وصنع القرار فيه بالاقتصاد السياسي على المستوى الكبير (العالمي)، والتحول نحو الاستدامة والعدالة الاجتماعية.

وهنا لابد من توضيح العلاقة بين صيانة وإدارة البيئة والايكولوجيا السياسية، والعولمة من خلال الأفكار الآتية كما طرحها زيمرر K.S. Zimmerer^(١٠):

١. احد الأفكار المركزية لهذه العلاقة تتمثل في التكنولوجيات التي وفرتها العولمة لاسيما تزايد استعمال الاستشعار عن بعد Remote Sensing ونظم المعلومات الجغرافية Geographical Information Systems التي قادت إلى ايجاد ترتيبات مكانية حديثة هي الشبكات البيئية التي تتجاوز الانماط التقليدية لدراسة اللاند سكيب.

٢. ثاني الافكار الرئيسة هي ان تفاعل الصيانة والايكولوجيا السياسية والعولمة تقود إلى مقاييس Scales جديدة هامة للإدارة البيئية وتفاعلات الطبيعة- المجتمع. ان وجهة النظر هذه تعني ان مستوى اللاند سكيب قد مات the Landscape Level is Dead. فليس هناك لاندسكيب واحد أو محدد مسبقا بل هذا المقياس يعتمد على طبيعة الأهداف المحددة وعمليات التفاعل محط الاهتمام.

٣. الفكرة الثالثة هي بروز أهمية الحدود حول كلا من المحلية والعبارة القومية ان قضايا الحدود العابرة القومية تبرز بشكل متزايد كنتيجة للأنشطة المتوسعة للمنظمات والمؤسسات العالمية التي تتجاوز نطاق سلطة الدولة المنفردة، فصيانه الموارد البيئية في ظل العولمة يجب ان تتفاعل مع الثقافات المحلية وديناميكيات التنمية. فالقضايا ذات البعد المحلي تمتد إلى العالمي والعكس صحيح. كما ان قضايا الحدود بالنسبة للعديد من حالات الزراعة المحلية واستعمال الموارد لا تستجيب كليا أو جزئيا للتصميمات المكانية للإدارة البيئية.

٤. الفكرة الرابعة هي المتعلقة باللامركزية Decentralization التي هي التعبير الرئيس الاخر لتأثير العولمة على الصيانة والايكولوجية السياسية، فاللامركزية تشير إلى الاتجاه نحو التأكيد على المستوى المحلي للحاكمة (أو الحوكمة) البيئية Environmental Governance، التي فيها المجتمعات المحلية، البلديات، القرى، الاسر، ووحدات الصيانة هي المواضيع الرئيسة لتدخلات السياسة. وان الحاكمة عند هذا المستوى تستحضر تأثير عدم العدالة الاجتماعية Social Justice التي تعمل ضمن البيئة المحلية مثل القرية أو المجتمع المحلي. وان عدم العدالة الاجتماعية هذه

يمكن ان تكون عرضة للتفاقم كنتيجة لما يسمى بتأثيرات السلطة (أو القوة)
Power Effects.

اما عن علاقة الايكولوجيا السياسية بالعلوم الأخرى، فان الجدول رقم (١) يفترض بان الايكولوجيا السياسية يقع ضمن الجغرافيا بشكل رئيسي. فهذا الحقل يتفاعل مع حقول جغرافية عديدة منها جغرافية التنمية، والجغرافية السياسية، وجغرافية السياحة، وجغرافية الصناعة وجغرافية المدن لذلك ليس من المدهش ان يكون العديد من المختصين في الايكولوجيا السياسية قد تدربوا و/أو تأسسوا في حقل الجغرافيا مثل Brookfield, Blaikie, Bailey, Adams, Bryant, Scott, Watts. وعليه فان الايكولوجيا السياسية يمكن ان يميز على انه حقل بحثي جغرافي الاساس، ومع ذلك له علاقات قوية مع حقول أخرى كالادارة البيئية والايكولوجية الحضارية التي لها نسب للجغرافيا بمدى بعيد أو قريب. عليه سوف نوجز في علاقة الايكولوجيا السياسية مع حقول معرفية معينة أكثر من غيرها وصولا إلى تحديد علاقة الايكولوجيا السياسية بالجغرافيا ووصفها كمولود في حقل الجغرافيا السياسية.

جدول (١) الخصائص الاساسية لحقول بحثية بيئية مختارة
من حيث العلاقة بالايكولوجيا السياسية للعالم الثالث

الحقل	التركيز الجغرافية	الحقل الرئيسي	تاريخ الانطلاق	المجلة الاكاديمية الرئيسية	المواضيع الرئيسية	الصلات مع الايكولوجيا السياسية للعالم الثالث	الرؤية البيئية
الايكولوجيا الحضارية والانثروبولوجيا الايكولوجية	العالم الثالث وبعض من العالم الاول	انثروبولوجيا	الستينيات	نعم	التكيف الحضاري للبيئة	قوي	موجه بيئيا
اقتصاديات الايكولوجيا	العالم الأول	الاقتصاد	الثمانينيات	نعم	التكامل الاقتصادي والايكولوجي (راديكالي)	قوي احتمالا	موجه بيئيا
اقتصاديات البيئة	العالم الأول	الاقتصاد	السبعينات	نعم	التكامل الاقتصادي والايكولوجي (رئيسي)	ضعيف	موجهه تكنولوجيا
التاريخ البيئي	العالم الأول (وبعض العالم الثالث)	التاريخ	السبعينات	نعم	تاريخ التفاعل البيئي - البشري	معتدل	موجه بيئيا
الادارة البيئية	العالم الأول	الجغرافيا	السبعينات	نعم	المعالجة البيئية المخططة	ضعيف إلى معتدل	موجهه تكنولوجيا
السياسة البيئية	العالم الاول	علم السياسة	السبعينات	نعم	النظرية السياسية	ضعيف إلى	موجهه

علم الاجتماع البيئي	العالم الأول	علم الاجتماع	الثمانينات	لا	تخضير التفاعل الاجتماعي والمواقف	ضعيف	موجه بيئيا
الايكولوجيا الكونية	كوني	الفيزياء والجغرافيا	الثمانينات	نعم	التغير البيئي الكوني	ضعيف	موجه بيئيا
الايكولوجيا البشرية	العالم الثالث والعالم الأول	جغرافيا	السبعينات	نعم	الفهم العلمي المتكامل الطبيعي - الاجتماعي للتفاعل البيئي - البشري	معتدل	موجه بيئيا
الايكولوجيا السياسية للعالم الثالث	العالم الثالث و الأول	جغرافيا	الثمانينات	لا	الاقتصاد السياسي للتغير البيئي	-	موجه بيئيا

Source : Bryant Raymond L. and sinead Baily (The Third World political Ecology) Routledge, London, 1997, Table 1-2.

الايكولوجيا السياسية لها علاقة قوية مع الايكولوجيا الحضارية Cultural Ecology

(الانتروبولوجيا الايكولوجية). فعلى الرغم من ان الايكولوجيا السياسية قد تطور كحقل نقدي للايكولوجيا الحضارية، فان الاخير قد تحرك بعيدا عن ضبط الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين وطور تفاعلات فيسفائية (تعددية) بين البيئة والحضارة. فالبحوث الحديثة في الايكولوجيا السياسية تلتقي مع الايكولوجيا الحضارية لاسيما في دول العالم النامي، حول دور علاقات القوة في ضبط تفاعل البيئي - البشري.

هناك أيضاً تلاقي أو تقارب يحدث بين الايكولوجيا السياسية والتاريخ البيئي فبينما بدأ الاخير يسجل اهتماما اكبر من الماضي لفهم التغير البيئي في العالم فان الأول اخذ يجذب نحو التاريخ البيئي من اجل كسب عمق تاريخي يحتاج اليه بشكل متزايد ويعاني من نقص سابق فيه.

كذلك يُظهر الايكولوجيا السياسية صلة أو نسبا محتملا مع حقل الاقتصاد الايكولوجي (الاقتصاد البيئي). فالاقتصاديون الايكولوجيون بذلوا جهودا للقيام بمهمة ضخمة حول تاثير تكامل الاقتصاد والايكولوجيا.

هنا أيضاً لابد من التمييز بين الايكولوجيا السياسية وعلم السياسة البيئي Environmental Politics. ان الاختلاف الرئيسي بين الاثنين يكمن في التناقض النظري والاهتمامات التجريبية التي تتبع من اختلاف اصولهما المعرفية. فعلم السياسة البيئي هو حقل معرفي ضمن علم السياسة الذي يطبق الأسئلة السياسية التقليدية تجاه القضايا البيئية. وبهذا فهو يفحص النظرية السياسية الخضراء وتأثير القضايا الخضراء على العملية السياسية الرسمية، ودور الدولة في الادارة البيئية، والسياسة تجاه القضايا البيئية الكونية (علم السياسة

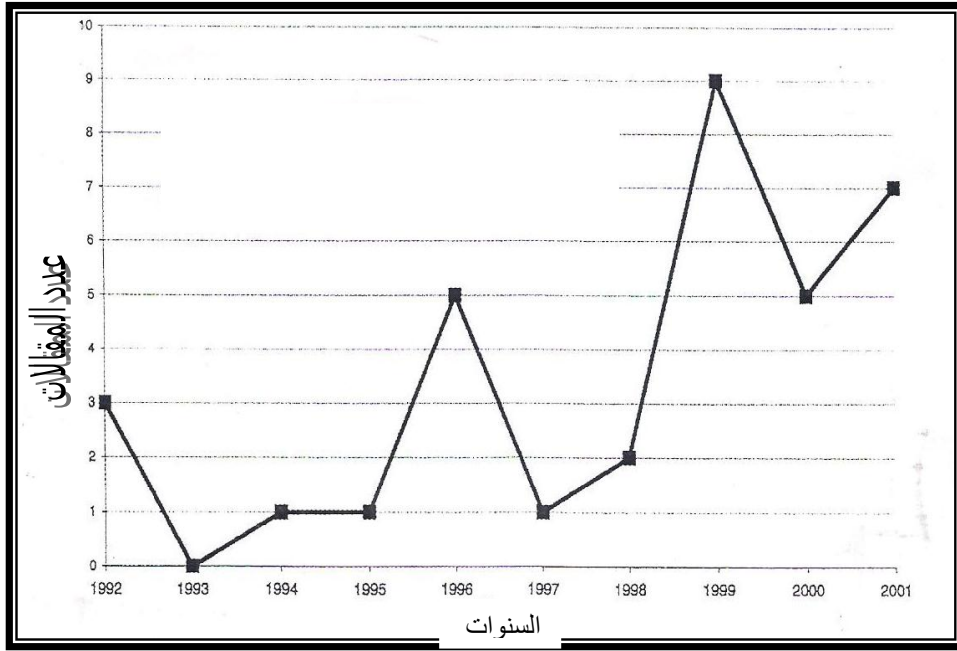
البيئي الكوني). على العكس من ذلك، فإن الايكولوجيا السياسية يكمن اليوم بشكل اساسي ضمن الجغرافيا ويستكشف الابعاد السياسية للتفاعل البيئي - البشري. ولكن يمكن اكتشاف التداخل والى مدى معين بين الايكولوجيا السياسية وعلم السياسة البيئي والبارز في التطبيقات البيئية للدولة. ومع ذلك فإن الايكولوجيا السياسية تتضمن فهما اوسع للسياسة من الموجود تقليديا في علم السياسة البيئي Environmental Politics. ففي الواقع يتم اهمال التوجهات المتنوعة للأنشطة والاهتمامات السياسية لغير الدول من قبل علم السياسة البيئي. كذلك فإن الاهتمام بالمظاهر المكانية للتفاعل البيئي - البشري يتجه لوضع الايكولوجيا السياسية بعيدا عن علم السياسة البيئي. وفوق كل ذلك فإن الايكولوجيا السياسية يُقيم تطبيقات (البيئة المسيسة Politicised Environment) بينما علم السياسة البيئي Environmental Politics يأخذ بنظر الاعتبار فقط البيئة التي يتم ادخالها بتطفل على العملية السياسية الرسمية^(١).

اخيرا الضرورة تقتضي الإشارة هنا إلى السؤال الاتي: ما هي العلاقة بين الجغرافيا السياسية والايكولوجيا السياسية؟ ولماذا نؤكد على ان الايكولوجيا السياسية هي المولود الثالث للجغرافيا السياسية بعد الجيوبولتكس، وجغرافية الانتخابات؟

للإجابة عن هذين السؤالين نقول ان البيئة تبقى اهتماما مركزيا للجغرافيين السياسيين. وسواء في التنظير على مقياس الدولة من حيث صراعاها المتعلق بالطلب على الموارد والإنتاج، والندرة Scarcity أو في دراسات ذات المقياس الصغير Micro-case Studies المتمركزة على التمزقات البيئية، فإن الجغرافيين السياسيين بدءوا يأخذون في الاعتبار، وبشكل متزايد، الفواعل غير البشرية في العملية السياسية. (مثل المناخ، الغابات، الانهار،...) ولهذا فإن البحث البيئي في الجغرافيا اخذ بشكل متزايد العناصر السياسية لنظم الإنسان - البيئة Human- Environment Systems بشكل أكثر جدية. لذلك يبدو ان هناك تقاربا أو التقاء بين الايكولوجيا السياسية والجغرافيا السياسية. وبصورة اقرب، فانه من الواضح ان الباحثين البيئيين المهتمون بالسياسة والجغرافيين السياسيين المهتمون بالبيئة يسيرون بشكل متواز، وان امكانات التخصيب المفاهيمي، والادوات النظرية، والطرق البحثية تبقى بينهما قوية.

ان وضع البيئة هذا في مجال الجغرافيا السياسية قد اشارت له بشكل واضح دراسة حديثة نسبيا من خلال فحص ما نشر من موضوعات تتعلق بالقضايا البيئية في مجلة (الجغرافية السياسية Political Geography) لفترة عقد من الزمان (١٩٩٢ - ٢٠٠١) حيث ظهر بان هذه الموضوعات قد نمت بشكل جلي وسريع اذ تبين ان عدد البحوث والدراسات المنشورة في المجلة بلغ (٣٤) بحثا ودراسة خلال الفترة المذكورة. شكل رقم (١). (١١) منها كرس للمياه، و(٧) حول مؤتمر ريو دي جانيرو والاتفاقيات والمعاهدات العالمية الأخرى،

و(٥) حول سياسة الصيانة Conservation Politics، و(٣) حول الاثار البيئية لهجرة اللاجئين والحرب، و(٢) حول قضايا العدالة البيئية، والـ(٦) المتبقية من البحوث والدراسات غطت مدى من الموضوعات المختلفة الأخرى. وقد شكلت هذه المجموعات من البحوث والدراسات ما يعادل ٨% من مجموع ما نشر في المجلة خلال ذلك العقد^(١٢).



شكل: (١) أعداد المقالات في مجلة الجغرافية السياسية المتعلقة بالقضايا الايكولوجية للفترة ١٩٩٢-٢٠٠٢

ويمكن ان نقرر بشكل استنتاجي وضع الايكولوجيا السياسية ضمن فرع الجغرافيا السياسية وذلك لاسباب:

١. ان الجغرافيا السياسية تهتم الان بالبيئة على نطاق واسع، ويكاد لا يخلو كتابا في الجغرافيا السياسية من تخصيص جزءا منه لقضية البيئة.

٢. ان الجغرافيا السياسية- وفروع جغرافية أخرى مثل المدن والسياحة والزراعية وغيرها- تعتمد في التحليل على الاقتصاد السياسي بعد ان اعتلى الاقتصاد العرش في ظل نظام عالمي جديد تسوده العولمة باعمدها الثلاثة منظمة التجارة العالمية، والبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي بما يعني الارتباط المتين في قاعدة التحليل المشتركة بين الايكولوجيا السياسية والجغرافيا السياسية.

٣. عدم اعتبار البيئة قضية طبيعية أو اقتصادية فحسب وانا ذات بعد سياسي امني اذ اعتبرت احدي القضايا التي تعالج ضمن اختصاص مجلس الامن الدولي باعتبارها تهدد الامن والسلم الدوليين.

٤. باعتبار الجغرافيا السياسية تهتم بالدولة كوحدة تحليل رئيسة من حيث قوتها وسلوكها الداخلي والخارجي، إضافة إلى اهتمامها بالفواعل العالميين الآخرين اللاعبين على المسرح العالمي كالشركات متعددة الجنسيات والمنظمات العالمية الحكومية وغير الحكومية، وبالتالي فإن الجغرافيا السياسية هي الحقل المعرفي الأكثر شمولاً وقدرة على تحليل قضايا الأيكولوجيا السياسية التي تحتوي على البعد السياسي والبيئي والاجتماعي والاقتصادي.

٥. اعتماد الجغرافيا السياسية مناهج تحليل اتفق كثير من الباحثين أنها معتمدة في معالجة قضايا الأيكولوجيا السياسية مثل المنهج الماركسي والانثوي والنظام العالمي World-System وغيرها.

طرق البحث في الأيكولوجيا السياسية:

يتبع الأيكولوجيون السياسيون طرقاً مختلفة في فحص التفاعل البيئي البشري في

ضوء مفاهيم الاقتصاد السياسي ومن منظور مكاني. وفي العديد من الحالات يجمع الباحثون عناصر من طريقتين أو أكثر. كما أنه لا يمكن أن يقال بأن طريقة معينة هي أفضل من أخرى بسبب أن اختيار طريقة معينة سيعتمد على الأسئلة التي يطرحها الباحث وأطراف البحث، ومرونة الشرح. هذه الطرق البحثية في الأيكولوجيا السياسية تتمثل في^(١٣):

الطريقة الأولى:

يتوجه البحث فيها نحو مشكلة بيئية معينة أو مجموعة مشاكل مثل تعرية التربة، إزالة الغابات، تلوث المياه، تآكل الأرض. هذه الطريقة تشكل موضوع البحث الجغرافي التقليدي المرتبط بفهم تأثير الإنسان على البيئة الطبيعية، ولكن بلغة مميزة للاقتصاد السياسي. الجغرافيون هم الذين حملوا سند هذه الطريقة، وعليه فإن Blaikie عندما درس الاقتصاد السياسي لتعرية التربة عام ١٩٨٧ شرح هذه المشكلة في ضوء هيراركية تربط القوى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية العاملة على مستويات محلية وإقليمية وعالمية. وقد طبقت هذه الطريقة على مشاكل بيئية في أجزاء معينة من العالم النامي، مثل إزالة الغابات المدارية في البرازيل أو في اندونيسيا، نقص المياه في بتسوانا أو تآكل المراعي في الساحل الأفريقي.

الطريقة الثانية:

تركز هذه الطريقة على مصالح الفواعل المختلفين وفهمها وكيف يتم تطويرها أي كيف تطورت الخطابات Discourses لتسهيل أو ترويض مصالح فاعل معين. وكما لاحظ Sckmins and Wood بان الأفكار التي تطرح إما تقوي أو تتحدى الاتفاقات السياسية

والاجتماعية الموجودة. وبهذا فان الايكولوجيين السياسيين يكتشفون ويطبّقون الخطاب المهيمن في مجال معين مثل الغابات في اوضاع مختلفة. باحثون اخرون قيّموا البناء الاجتماعي للكوارث الطبيعية والتعرض للعطب ويبدو ان العمل حول التنمية المستدامة افضل بحث يمثل هذه الطريقة. وعليه فان بعض الباحثين فحصوا عند تحليل التنمية المستدامة التناقضات المحتملة للمسالة للتوفيق بين الصيانة البيئية والنمو الاقتصادي ضمن النظام الراسمالي المعاصر. وقد كشف Escobar الخطاب المؤثر المحيط بالتنمية المستدامة لكي يوضح الافتراضات المهنية حول المجتمع والطبقة، والاقتصاد السياسي الذي يجعل من هذه الافتراضات ممكنة.

الطريقة الثالثة:

تتمثل في فحص علاقة الترابط بين المشاكل الايكولوجية والسياسية في اقليم معين. هذه الايكولوجيا السياسية الاقليمية عكست ضرورة الاخذ في الحسبان النقلاب البيئي، والتباينات المكانية في سهولة تكيف الارض وحساسيتها.

ان نظريات النمو والتدهور الاقليمي في غرب افريقيا، وفي جنوب شرق اسيا، وفي شمال افريقيا (مثل نهر النيل) تشرح استعمال هذه الطريقة التي تؤطر المشاكل الايكولوجية السياسية في السياق الاقليمي. ان طبيعة المشاكل غالبا ما تتباين من اقليم إلى اقليم، ولكن الهدف المشترك هو تقييم هذه المشاكل في سياق اقليمي.

الطريقة الرابعة:

تتمثل في اكتشاف المسائل الايكولوجية السياسية في ضوء الخصائص الاجتماعية-الاقتصادية مثل الطبقة، الاثنية، الجندر.

فما كتب حول افريقيا وامريكا اللاتينية ركز الضوء على البحث الايكولوجي السياسي المعتمد على تحليل الطبقة أي يتم توضيح الصراع المحلي في ضوء العلاقات الراسمالية للإنتاج والصراع الطبقي. علماء اخرون انجزوا بحوثا ترتبط بعوامل ليست طبقية، فمثلا Colchester, Hong فحصا تاثير الدولة الراحية للتخشب على السكان الاصليين في سرواك في ماليزيا، كما ان علماء اخرون اخذوا بنظر الاعتبار الاثنيات وكيف ان التهميش السياسي والاقتصادي للاثنيات (الذي غالبا ما يرتبط بتحول الزراعة أو الصيد) يوضح الوطاة الكبرى للتكاليف المرتبطة بالتاكل البيئي. عمل اخر يظهر كيف ان ما يسمى بالايكولوجيا السياسية الانثوية Feminist Political Ecology يشرح ان عدم المساواة الجندرية ترتبط بالصراع والتغير البيئي.

الطريقة الخامسة:

تؤكد على الحاجة إلى التركيز على مصالح Interests وخصائص وفعال الأنواع المختلفة من الفواعل Actors لفهم الصراعات الايكولوجية- السياسية. هذه الطريقة الموجهة نحو الفاعل Actor- Oriented تبحث عن فهم هذه الصراعات (التعاون أيضاً) كمحصلة للتفاعل لمختلف الفواعل المالكين لاهداف ومصالح غالباً ما تكون متباينة. مثلاً حل كل من Touse و Bassett عام ١٩٨٨ الصراع بين الرعاة، والزراع، والدولة في ساحل العاج والسنغال والمرتبطة بتباين مصالح هذه الفواعل. كذلك فان كل من Moody, Morehouse, Leonard, Pearson قاموا بكشف العلاقات بين استراتيجيات الشركات العابرة القومية، والتآكل البيئي، والصراع السياسي المحلي في المكسيك، وغينيا الجديدة وناميبيا والهند. باحثون آخرون فحصوا كيف ان السياسة المرتبطة بالغابة Forest Politics في الهند واندونيسيا ويورما حكمت صراع مختلف الفواعل (القرويون، الزراع المتجولون، الاعمال)، مع الدولة، وكذلك الصراعات ضمن الدولة بين اقسام (الزراعة، الغابات، التنفيذيون) فالطريقة الموجهة نحو الفواعل تحاول فهم الفواعل عبر ربط مصالحهم وخصائصهم وفعالهم بالعمليات الايكولوجية السياسية.

مناهج البحث في الايكولوجيا السياسية:

يستخدم الجغرافيون وغيرهم أيضاً مناهج عدة لدراسة ظواهر الايكولوجيا السياسية على الرغم من حداثة هذا الحقل المعرفي. وقد استطاع الباحث وبعد استقراء ما استطاع من الادب حول الموضوع ان يقرر ان هناك المناهج الاتية التي تستخدم على نطاق واسع في فحص وتحليل الظواهر في الايكولوجيا السياسية:

١. منهج المalthوسية الجديدة:

هذه التسمية تعود أو تنسب إلى الراهب والاقتصادي الإنكليزي توماس روبرت مالثوس (١٧٦٦-١٨٣٤) الذي اعلن عن تعميمه الخاص بالعلاقة بين السكان والموارد وبشكل خاص (الغذاء) اذ يُلخص هذا التعميم بان السكان يزدادون بنسبة اكبر من زيادة الموارد مما يقود الى الفقر والحرمان والمشكلات المرتبطة بتلك العلاقة^(١٤). ثم استخدم المalthوسيون الجدد هذه الفكرة في سبعينيات القرن العشرين ليعلنوا بشكل واضح ان العالم سيواجه فاجعة بيئية واجتماعية تعود إلى النمو السكاني السريع للعالم النامي ومستويات الاستهلاك للعالم الأول (الراسمالي المتطور). وقد تم الاعلان من هذا الفكر المتشائم بيئياً في دراسة عرفت بـ(حدود النمو) الصادرة عن نادي فكري يسمى (نادي روما) عام ١٩٧٢ التي اخذت بعد عالمياً وخضعت هذا الدراسة للفحص والتحقيق والتحليل والنقد في مختلف بقاع العالم على كل

المستويات الشعبية والرسمية والاكاديمية. وعلى الرغم من ان هذه الدراسة الفكرية عرفت تحت مسمى المalthوسية الجديدة Neo- Malthusianism فان ميلها للوصفات السياسية المتطرفة لحل الازمة البيئية العالمية قاد لان توصف اعمالها أيضاً من وقت لآخر كايكولوجيا سياسية.

فالمalthوسية الجديدة ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية لتجعل من ارتفاع معدل النمو السكاني سببا اساسيا لتفسير الفقر والتخلف للدول التي حصلت على استقلالها بعد الحرب في اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية، بدلا من ان ينظر إلى هذا الوضع كنتيجة للعملية التاريخية للتخلف، والتي لعب الاستعمار الدور الرئيسي فيها. وفي مرحلة تالية أو بالتحديد في الستينيات من القرن العشرين، ظهرت المalthوسية الجديدة في مجال معالجة قضية الغذاء العالمي ومحاربة الجوع المنتشر في كثير من مناطق العالم مركزة على ما يسمى بخطر الانفجارات السكانية، وعدم امكان تدبير الطعام لهذه الافواه المتزايدة، مهما بلغ التقدم العلمي مداه. اما المرحلة المعاصرة للمalthوسية الجديدة. فقد ظهرت بموضوع فيما عرفت باسم نماذج النمو العالمية. وهي نماذج على درجة عالية من التجريد والتجميع والتفريق قام بها مجموعة من العلماء في الدول الراسمالية المتقدمة من مختلف التخصصات، للبحث في المسارات المختلفة التي يمكن للبشرية ان تسير بها وذلك في ظل افتراض سيناريوهات مختلفة لمعدلات النمو السكاني ومعدلات استنزاف الموارد وتلوث البيئية^(١٥).

٢. المنهج الماركسي:

ان النقد الذي وجه إلى المنهج المalthوسي جاء من قبل اليسار المعتمد على النظرية الماركسية الذي تشكك في اراء المalthوسية القديمة والجديدة ومن ثم تحول الانتباه في الايكولوجيا السياسية إلى المناظرة بين الاحمر- الاخضر أي نحو التقارب بين الايكولوجيا السياسية والاشتراكية. وقد بدأ هذا المنهج في الظهور في اواخر الستينات واول السبعينيات مهاجما المظاهر المختلفة لوجهة نظر المalthوسية الجديدة لاهمالها قضايا مشتقة من الاقتصاد السياسي للتغير البيئي. وعليه فقد قام المنهج الماركسي الجديد بتقديم وسائل لربط الظلم الاجتماعي المحلي والتاكل البيئي لقد اختصر لنا Peet وزميله Watts في كتابهما حول العلاقة بين الايكولوجية السياسية والماركسية الجديدة من منظور جغرافي عندما ذكرا بان الايكولوجيا السياسية قد تطورت كمنهج جغرافي في اختبار قاس لنظرية التنمية الماركسية أو الماركسية الجديدة.. بسبب ان الماركسيين لا يتوافقون مع الشروح المalthوسية الجديدة للضغوطات البيئية التي تركز بشكل كبير على تزايد السكان. فالماركسيون الجدد ومنهم الايكولوجيون السياسيون يحتاجون بان الشروح المalthوسية للتاكل البيئي تتجاوز علاقات القوة

بين المتغيرات الاقتصادية والسياسية، والمجتمعية، والمؤسسية، والتكنولوجية التي تؤثر على البيئة وعلى الناس الذين يعيشون ويعملون في تلك البيئة. ان الانتقادات الماركسية زودت الايكولوجيا السياسية بالادوات الضرورية لفحص تأثيرات القوى السياسية- الاقتصادية على البيئة^(١٦).

٣. المنهج البنوي:

ان بداية ظهور الاتجاهات البنوية قد نشأت كبداية للاتجاهات الوضعية Positivist التي طغت على الدراسات الجغرافية البشرية خلال الخمسينات والستينات من القرن العشرين. ومما يجب ذكره ان الاتجاهات البنوية تركز على الفلسفة المادية التاريخية Historical Materialism التي عرفت بمعارضتها للأفكار الراسمالية القائمة على حرية السوق وسيطرة النظام الطبقي في عمليات الإنتاج. لهذا فقد نشأ ما يسمى بالجغرافيا البنوية ذات الاتجاهات الراديكالية اليسارية القائمة على ارجاع تفسير الظواهر المختلفة إلى عوامل ذات طبيعة اقتصادية مادية. ولهذا يعزو الجغرافيون البنويون نشوء الكثير من الظواهر الجغرافية في الغرب إلى بعض مظاهر النظام الراسمالي المختلفة في التراكم غير المتساوي لراس المال The Unequal Accumulation of Capital حيث يتمتع بمزاياه الراسماليون ويحرم منها (العمال).. كما تتطور بعض الاقاليم في الدولة على حساب اقاليم أخرى فيصنف بعضها على انه مركزي هام والآخر هامشي. وكذلك الحال على مستوى الدول، حيث تتطور دول العالم الغني الراسمالي (المركز Core) فيما تتدهور دول العالم النامي (الهامش Periphery) ومن هذا المنطلق القائم على الصراع المستمر فيما بين القوى المختلفة تناقش الجغرافيا البنوية موضوعات مثل تزايد نفوذ الشركات متعددة الجنسية وعدم اهتمامها بالبيئة. ودور الطبقات المختلفة في الدول، وعدم المساواة بين الاقليات، مشاكل الاسكان، الدراسات البيئية والريفية، وعدم المساواة بين الاقاليم^(١٧).

ان البنوية قد تم التنظير لها والتوسع فيها من قبل الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو Michael Foucault وفي مجال الايكولوجيا السياسية، فان طرق التحليل البنوي قد تم قيادتها من قبل Richard Peet and Michael Watts, Arturo Escobar وبدرجة أقل Paul Robbins. ان الفكر البنوي وما بعد البنوي يساهم بالنسبة للايكولوجيا السياسية بواسطة فحص الطرق التي بها علاقة القوة تنتشر، وتسوي الخلافات، وتُفقد من قبل لاعبين مختلفين عبر اللغة. وهنا لاحظ Escobar بان البنوية وما بعد البنوية تركز على دور اللغة في تكوين (تركيب) الواقع الاجتماعي، انها تعالج اللغة ليس كانعكاس للواقع بل كمكون له As

Constitutive of it^(١٨) فالبنوية وما بعد النبوية تؤكد على الخطاب Discourse* وعلى المنظمات والمؤسسات الاقتصادية والسياسية التي تستعمل الخطاب لانتراع القوة من الآخرين. وبهذا فان البنويين يعرفون نظرة بديلة ومختلفة بالنسبة للطريقة التي نفهم بها الكلمات التي يظن انها مسلم بها مثل الطبيعة Nature والبيئة Environment. وبتفكيك هذه المصطلحات في سياقات تاريخية، وسياسية، واقتصادية فان البنويين يوفرون بصيرة أكثر ومنظورا مختلفا لقضايا تتعلق بعلاقات القوة في دراسات الايكولوجيا السياسية، هنا لابد من الاشارة إلى ان انصار هذا المنهج يعتبرون الاستدامة Sustainability. المصطلح الذي ظهر على اثر نشر تقرير لجنة البيئة والتنمية التابعة للامم المتحدة المعروفة بتقرير برونتلاند واسمه الحقيقي (مستقبلنا المشترك Our Common Future) وذلك عام ١٩٨٧ ، مصطلحا مخادعا روجه بلغة منمقة البنك الدولي ومنظمات أخرى، ذلك ان الاستدامة تعني اشياء مختلفة لأناس ومؤسسات مختلفة. فالاستدامة عند الايكولوجيين السياسيين البنويين ليس ككيونة (Entity) مستعملة في استدامة البيئة لكن لاستدامة الاعمال الراسمالية المترسخة في السياسة الاقتصادية الليبرالية الجديدة. ولهذا يرى هؤلاء البنويون بانه (في خطاب التنمية المستدامة فان الطبيعة يعاد اختراعها (Reinvented) كبيئة لخدمة الراسمال، وليس لكي تستدام وتحت هذه الظروف المعاصرة حيث يتسيد الاقتصاد الليبرالي الجديد على البيئة، فانه من غير المحتمل ان تتعايش البيئة والرسمالية في وضع قابل للاستدامة^(١٩).

٣. المنهج الانثوي:

يمثل منظور اخر يساهم في اغناء الايكولوجيا السياسية ويسمى بالايكولوجيا السياسية الانثوية (Feminism Political Ecology) الذي يسلط الضوء على التقيدات البيئية التي ترتبط بالنساء في مختلف الاوضاع. ففي بعض الظروف تحمل النساء حصة غير متناسبة من المسؤوليات لادارة الموارد وحماية البيئة وفي الوقت نفسه تملك حقوق رسمية محدودة جدا ووسائل اقتصادية وسياسية محدودة لتحديد مستقبل توفر المورد والنوعية البيئية^(٢٠)

زد على ذلك فان Agarwal وجد بان التهميش الاجتماعي للنساء في مجتمعات الهيمنة الذكورية منعكس في الاعتماد على الموارد البيئية التي غالبا ما تكون مستغلة من الرجال. مما يقود إلى التاكل البيئي مما يفاقم فقط وضع الفقراء من النساء^(٢١).

كما يمكن ان يضاف إلى ذلك ان الدور المحوري للنساء في السياسة البيئية اصبح واضحا على نحو متزايد، حيث شكلت النساء الغالبية ضمن الناشطين في كثير من الحركات البيئية في كل من الشمال والجنوب.

كما ان الارتباط بين التدمير البيئي واضطهاد النساء والاشكال الأخرى من الحيف الاجتماعي قد حظي باعتراف متزايد من قبل كل المنظرين والناشطين^(٢٢). ولهذا يلح النسويون الايكولوجيون على ان نوع منطق الهيمنة المستخدم لتسوية الهيمنة على البشر بواسطة الوضع الجنساني أو العرقي أو الاثني أو الطبقي هو أيضاً المستخدم لتسوية الهيمنة على الطبيعة.. وعلى ضوء ذلك تفسر النسوية الايكولوجية كيف ولماذا ينبغي للنسوية، بما هي حركة لانهاء الجور الجنسي (Gender)، ان تتوسع لتدخل ضمن اهتمامها انهاء التمييز ضد الطبيعة وذلك في ضوء الحجج الآتية^(٢٣):

١. النسوية حركة لانهاء التمييز الجنسي.
٢. لكن التمييز الجنسي مرتبط مفهوماً بالتمييز ضد الطبيعة (من خلال اطار مفهومي جائر اتسم بمنطق الهيمنة).
٣. ان النسوية أيضاً حركة لانهاء التمييز ضد الطبيعة.

لقد ظهرت الترابطات فيما بين النساء والطبيعة عندما صعدت على نحو متزامن حركتان اجتماعيتان حديثتان: حركة تحرير النساء، والحركة البيئية التي نشأت تدريجياً في عقد الستينيات من القرن العشرين. ان المشترك بين الحركتين هو منظور المساواة تناضل النساء كي يحررن انفسهن من القيود الثقافية والاقتصادية التي ابقتهن في منزلة ثانوية بالنسبة إلى الرجال. اما البيئيون، وهم يحذروننا من العواقب غير القابلة للتراجع الناجمة عن الاستغلال البيئي المستمر، فانهم يطورون اخلاقاً تشدد على الترابط بين الناس والطبيعة^(٢٤).

في ضوء ذلك نرى الكاتبة الاسترالية ارثيل ساله Salleh تركز على حجم عمل النساء وطبيعة ومستوى استغلال عملهن عالمياً بابخس الاجور، ومن ثم تلفت الانتباه إلى هذا الاستغلال على اساس جنسي بحيث اصبحت النساء بنظرها طبقة بروليتاريا الحاضر، ومع ذلك نرى النساء قد قمن بدور مركزي في حركات العدالة البيئية في كل انحاء العالم وتميز نشاطهن بالتزام عميق في الدفاع عن المجتمعات البشرية والبيئة الطبيعية^(٢٥). وقد شهدت حركة النسوية الايكولوجية تطورات كبيرة خصوصاً بعدما بدأت في مواجهة ظاهرة العولمة وتقييم الموقف المحوري للنساء في اقتصاد العالم. ويظهر ذلك بوضوح من خلال اعمال الكاتبة الهندية فاندانا شيفا التي تعتبر واحدة من ابرز نقاد التنمية في عصر العولمة، حيث تؤكد على ان الصيغ المهيمنة في التنمية هي استمرار لمشروع الهيمنة على الاخر (الطبيعة، النساء، الشعوب الاصلية، الطبقات الفقيرة) وتنتظر للتنمية باعتبارها تحولاً في النزعة الاستعمارية من استعمار كلاسيكي اعتمد الاخضاع العسكري والاحتلال المباشر والبيروقراطية إلى تنمية استعمارية جديدة تحقق اهدافها بكفاءة اعلى من خلال النخب العميلة والتقنيات المتطورة، وتفترض هذه التنمية الاستعمارية الجديدة مسبقاً، وفقاً لشيفا Shiva،

اخزال النساء والطبيعة كمواد استعمالية تؤثر فيها القوى الاقتصادية... وتربط شيفا في كتابها المعنون *Staying Alive: Women, Ecology and Survival in India* الذي يعكس الطبيعة العالمية المتنامية للنسوية الايكولوجية خلال الثمانينيات بين (موت المبدأ الانثوي)، و(التمية المشوهة) في العالم الثالث حيث تزعم ان التتمية المشوهة اصبحت مرادفة لتخلف النساء واستنفاد موارد الطبيعة^(٢٦).

٥. منهج النظام - العالمي:

يعود هذا المنهج في اصوله إلى عالم الاجتماع الأمريكي ايمانويل فالرشتاين Immanuel Wallerstien عبر سلسلة كتب اصدرها خلال سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين^(٢٧) مقترحا بديلا لوحدة التحليل التي اعتاد عليها علماء السياسة والجغرافية السياسية والاقتصاد وهي الدولة اذ اقترح الاقتصاد العالمي، المجتمع العالمي أي نظام- عالمي (World- System) واحد بوصفه وحدة التحليل الوحيدة وكمقولة جغرافية، اقتصادية، زمانية، مكانية للتطور عبر خمسة قرون ابتداءً من عام ١٥٠٠.

ان المدخل الذي يعتمده فالرشتاين هو مدخل تاريخي يستند على ابحاث متداخلة المعارف Interdisciplinary حيث درس الاقتصاد العالمي لفترات طويلة ساعيا للكشف عن مجموعة القواعد والسنن الناظمة لنشاط الاقتصاد العالمي.. لذلك فان النظر من افق النظام- العالمي، طبقا لفالرشتاين، هو الافق البحثي الاكثر ملائمة لدراسة تطور المجتمعات.

ونتيجة الابحاث التاريخية التي اجراها فالرشتاين فقد توصل إلى استنتاج يقول ان الاقتصاد العالمي المعاصر تحكمه قواعد أو سنن تشكلت عشية القرنين الخامس عشر والسادس عشر في اوربا، واتسع مداها الاقليمي ليشمل كوكبنا الارضي، غير ان جوهره وتقسيم العمل لم يتعرض للتغيير تقريبا.

فالاقتصاد العالمي، حسب فهم فالرشتاين، يستند على تقسيم للعمل يقوم على التبادل اللامتكافئ بين مجموعات كبرى هي:

المركز Core

شبه الاطراف Semi- Periphery

الاطراف Periphery

والتبادل اللامتكافئ عند فالرشتاين يؤدي إلى تحويل جزء من اجمال الربح (أو الفائض) الناتج عن منطقة معينة إلى منطقة أخرى بحيث يمكن ان نطلق على المنطقة الخاسرة اسم الطرف أو الهامش، أو المحيط، والرابحة مركز.

وفي تحديده لهذه المجموعات كمستويات مكانية مكونة لبنية الاقتصاد العالمي، استند فالرشتاين على تحليل الوظيفة التي تؤديها كل مجموعة ضمن تقسيم العمل المذكور سابقا. فمركز الاقتصاد العالمي (النظام- العالمي World System) حسب فالرشتاين تمثله تلك الاقاليم التي تجدد وتحث التقدم التكنولوجي العالمي، وتمتلك ما يسمى بالفروع الإنتاجية القائدة، وبنتيجة التبادل اللامتكافئ يتدفق إلى هذه الاقاليم الجزء الاساسي من الفائض الاقتصادي العالمي.

اما دور شبه الاطراف فانه يقوم على تلطيف التوترات السياسية والاقتصادية الناشئة بين المركز والاطراف، وكذلك على توطين جزء من الاستثمارات المباشرة، القادمة من المركز، في الاطراف. ويعتقد فالرشتاين بانه بدون دول شبه الاطراف ما كان بإمكان الاقتصاد العالمي ان يعمل.

تؤدي دول شبه الاطراف وظيفه الاطراف تجاه المركز (عرض الخامات الرخيصة، استيراد رأس المال)، في حين تؤدي وظيفة المركز تجاه الاطراف (الطلب على الخامات الرخيصة، تصدير رأس المال).

اما الجزء المتبقي من اقاليم العالم فتمثله، وفقا لفالرشتاين، اطراف الاقتصاد العالمي المعاصر، انها اقاليم الطاقة والموارد الرخيصة المنتجة والموجهة للسوق العالمي. ان ثمار النمو الضئيل لإنتاجية العمل تهرب بكاملها تقريبا من هذه المناطق نحو الخارج^(٢٨).

اما الفواعل في النظام- العالمي، حسب فالرشتاين، فيتمثلون في اربعة مؤسسات هي الاكثر تأثيرا في الاقتصاد العالمي^(٢٩).

أولاً: الدولة – وهي التي تملك ناصية الهيمنة الرسمية على الاقتصاد، فهي المسؤولة عن سن القوانين التي تحدد النشاط الاقتصادي ومساراته.

ثانياً: الشعوب – بمعنى تجمعات الافراد الذين يشتركون في انتماءات حضارية واحدة، ولا يوجد مسمى واحد متفق عليه لهذه المؤسسة، فاحيانا يطلق عليها (الامة) أو (الدولة). وقد توجد داخل الامة اقلية عرقية تسعى لكي يصبح لها كيان مستقل. ومهما كانت الحال فان الشعوب تلعب دورا مهما في احوال عالمنا المعاصر.

ثالثاً: الطبقات – وهي فئة مؤسسية أقل تعقيدا لكنها مثيرة للجدل بنفس القدر الذي تثيره (الشعوب). فسكان العالم يمكن تقسيمها إلى شرائح أو فئات بناء على معايير اقتصادية، وتسمى هذه الشرائح طبقات، ويتبع فالرشتاين الخط الماركسي في تعريفه للطبقات، وذلك وفق موقعها من نمط الإنتاج. ولما كان نمط الإنتاج في عالمنا المعاصر يتسم بالكونية، فان الطبقات بدورها تصبح فئات أو شرائح كونية.

رابعا: العائلات – وهي المؤسسة الرئيسية الرابعة عند فالرشتاين. وهي لا تتحدد على اساس القرابة أو النسب، وانما الذي يجمعها شراكة أو تضامن في نشاط مالي، ومن ثم فهي مجموعة متضامنة من الافراد في مواجهة عالم يضم لهم العداء. كما ان سلوك هذه الجماعة الاساسي هو تشغيل موازنة تجمع الموارد وتخصص اوجه الانفاق. ويُعد فالرشتاين، مقتديا في ذلك بالتطبيق الماركسي، هذه (العائلات) بمنزلة الذرات المكونة لمنظومة الاقتصاد العالمي، وباللبنة الاساسية للمؤسسات الأخرى. وهذه العائلات بافرادها الذين تظلم كمؤسسة تخضع لقوانين الدولة، وتقع اقتصاديا داخل طبقة بعينها من طبقات المجتمع. على ضوء ما سبق، يمكن تقديم وتحديد أهمية منهج النظم – العالمية في مجال الايكولوجيا السياسية كما يأتي:

١. ان منهج النظم – العالمي يقيم علاقات الهيمنة والتبعية والسيطرة داخل النظام – العالمي في قضايا متعددة ومنها قضية البيئة والموارد.
٢. انه يربط فواعل النظام – العالمي بالايكولوجيا السياسية وهم الدولة، والشعوب، والطبقات، والعائلات اذ من المعروف ان الدول والشعوب والطبقات والعائلات الفقيرة تدفع ثمن تدهور البيئة وتآكل الموارد أكثر من الغنية في ظل النظام الراسمالي السائد والمهيمن.
٣. انه يعيد تحديد نطاق التحليل الجغرافي السياسي مكانيا من الكوني إلى القومي والى المحلي وبالعكس، وهو ما يتطابق مع تحليل ظاهرة تدهور البيئة التي لا تعرف الحدود السياسية (أو الاجتماعية أو الاقتصادية أيضاً).
٤. يعطي منهج النظم – العالمي للاقتصاد السياسي اعتبارا اكبر في العمليات المكانية المفروضة على اللاند سكيب لاسيما ان بُعد الاقتصاد السياسي قد دخل التحليل الجغرافي السياسي منذ سبعينيات القرن العشرين^(٣٠) وانتعش بشكل واضح منذ انهيار نظام القطبية الثنائية في اوائل التسعينيات من ذلك القرن.

اجندة مقترحة لحقل الايكولوجيا السياسية:

قبل الولوج إلى وضع اجندة للايكولوجيا السياسية لابد من الاشارة إلى ان هناك جدل يدور حول مدى وجود الايكولوجيا في الايكولوجيا السياسية أو مدى وجود السياسية Politics في الايكولوجيا السياسية^(٣١). هذا من جانب، ومن جانب اخر، يبدو ان هناك ضعف في الايكولوجيا السياسية يتمثل في صعوبة تحديد ميدان هذا الحقل المعرفي، مما ادى بشكل غير متوقع إلى تعميق وتكاثر الايكولوجيات السياسية Political Ecologies في التسعينيات. كما ان حداثة الحقل جعلت قائمة المشاكل التي يعالجها مفتوحة من الاخر Open-end مما يصعب من محاولة وضع اجندة للايكولوجيا السياسية، الا ان هذا كله لا يمنع من ضرورة هذه الاجندة

لتصبح خارطة طريق للباحثين لاسيما الجدد منهم الذين يدخلون هذا الميدان وذلك بقدر تعلق الامر بالمنظور الجغرافي للايكولوجيا السياسية:

١. الربط بين مقاييس التحليل المكاني من العالمي إلى المحلي وبالعكس.
٢. إنتاج واعداد إنتاج سبل العيش كموضوع بحثي اساسي.
٣. ادوار الفواعل Actors المختلفين (دول- اعمال- افراد- مجتمع محلي..) وتطور خطاباتهم.
٤. دراسات التوفيق بين الصيانة البيئية والنمو الاقتصادي لاسيما في ظل النظام الراسمالي.
٥. اسباب وعواقب التهميش الاجتماعي- البيئي وعلاجه.
٦. البحث التاريخي والحقلي التجريبي من اجل تحليل الموروث الاستعماري وما قبل الاستعمار لمعرفة الايكولوجيا السياسية ما بعد الاستعمار Postcolonialism.
٧. تطوير المناهج الحديثة في الايكولوجيا السياسية مثل المنهج الانثوي ومنهج النظام العالمي.
٨. تحليل ابعاد الحركة الاجتماعية الخضراء.
٩. الايكولوجيا السياسية للمدن.
١٠. تعميق استخدام التقنيات الجغرافية الحديثة مثل نظم المعلومات الجغرافية GIS والاستشعار عن بعد RS.
١١. العلاقات الطبقيّة والبنى الاثنية للتصارع على الوصول إلى الموارد المنتجة.
١٢. مشاكل بيئية معينة في اجزاء من العالم النامي مثل ازالة الغابات المدارية في البرازيل أو اندونيسيا، وتاكل المراعي في الساحل الافريقي، واستنزاف المعادن في افريقيا.
١٣. دور الدولة في تحديد وتنفيذ السياسات التي تلائم مصالح فواعل اجتماعيين معينين على غيرهم.
١٤. اكتشاف المشاكل الايكولوجية السياسية في ضوء الخصائص الجندرية Gender.
١٥. وظيفة الاقتصاد العالمي في تشجيع انماط معينة من استعمال المورد وفق تقسيم عمل دولي جائر.

الخاتمة

ان التحليل الذي تم تقديمه لمفهوم وتطور ومحتوى الايكولوجيا السياسية يمثل أول محاولة باللغة العربية حول ما يمكن للجغرافيا ان تقوم به من اجل تطوير وظيفتها ونفعتها عبر تناول موضوعات متداخلة المعارف ومتعددة المعارف من جانب، وعبر توفير أطر نظرية تعطي قابلية للجغرافيا لتناول موضوعات لم تستطع تناولها سابقا بسبب ضعف البناء النظري. وهو ما يقودنا إلى القول بان ضغوطات العولمة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والبيئية، وتكنولوجيا الاتصالات والمعلومات قد عرضت الجغرافيا، شأنها شأن كل العلوم الاجتماعية والانسانية، إلى هزة عنيفة دفعت الجغرافيين إلى البحث عن سبل تكيف علمهم لهذا الواقع الجديد بما يخدم احتياجات الفرد والمجتمع على المستويات المحلية والوطنية والعالمية. ولعل التحليل في الايكولوجيا السياسية يستطيع المساهمة للقيام بهذه الوظيفة، على المستويين النظري والعملي.

ان محاولة الباحث هذه- كما يعتقد- جديرة بالاهتمام من قبل الجغرافيين العراقيين والعرب من اجل تطويرها وتحويرها وتطبيقها لاسيما ما تم طرحه في الاجنده البحثية للايكولوجيا السياسية، إذ ان مستقبل الايكولوجيا السياسية يمكن ان يكون له تداعيات مهمة على مستقبل الجغرافيا ككل.

الهوامش والمصادر

- (١) يشير الباحث المشهور في مجال الايكولوجيا السياسية بيير بليكي الى ان هذا الحقل قد تطلب فترة طويلة تاريخياً للتأسيس لكنه يحدد نهاية الثمانينيات كنقطة مرجعية للتفصيل ينظر:
Piers Blaikie (Epilogue: Towards a future for political Ecology the works) Geoforum, 2008, 39, pp. 765-772.
- (2) P. Blaikie and H. Brookfield (Land Degradation and Society), Methuen, London, 1987, P. 17.
- (3) A. Atkinson (Principles of Political Ecology), Belhaven, London, 1991, P. 18.
- (4) Bruce, M. Russett (International Regions and the International System): A Study in Political Ecology) Rand McNally, Chicago, 1967, P, VII.
- (5) للاستزادة ينظر:
Geoff Mann (Should Political Ecology be Marxist ? A case for Gramsci's Historical Meterialism) Geoforum , 2009, 40, pp. 335-444 ; Alan P. Rudy and Brain J. Garean (Actor- Network Theory, Marxist Economics and Marxist political Ecology) Capitalism, Nature, Socialism, 2005, vol. 16, No. 4, pp. 85-90
- (6) R.L. Bryant (Political Ecology: An Emerging Research Agenda in the Third World Studies), Political Geography, Vol.11, 1992, P. 13.
- (7) R.L. Bryant and Sinead Bailey (Third World Political Ecology) Routledge N.Y. 1997, P. 190.
- (8) حول تقسيم التطور التاريخي لحقل الايكولوجيا السياسية وأهمية التحليل التاريخي فيه تم الافادة من المصدرين الآتيين:
- Peter A. Walker (Political Ecology: Where is the Ecology) Progress in human geography, 2005, 29, pp. 77-79.
- Karl H. Offen (Historical Political Ecology: An introduction) Historical Geography, 2004, 32, pp. 19-42.
- (9) Donella H. Meadows and Others (The Limits to Growth), Universe Books, N.Y. 1972.
- * نتيجة لارتباط العولمة الكونية بالمحلية تم نحت مصطلح Glocalization التي يمكن ترجمتها بـ(العومحلية).
- (10) Karl S. Zimmerer (Cultural Ecology: At the Interface with Political Ecology- The New Geographies of Environmental Conservation and Globalization) Progress in Human Geography, Vol. 30, No. 1, 2006, P. 65.
- (11) Bryant L. Raymond and Sinead Bailey (Third World Political Ecology) Routledge, London, 1997, P. 17.
- (12) للمزيد من الاطلاع ينظر:
Paul Robbins (Political Ecology in Political Geography) Political Geography, Vol. 22, 2003, P. 41- 45.
- (13) للتفصيل حول هذه الطرق يراجع بشكل رئيس المصدر الآتي:
Bryant Raymond and Sinead Bailey (Third World Political Ecology) Routledge, London, 1987, P. 21- 24.
- (14) لتفصيل افكار مalthوس يراجع:
Thomas Robert Malthus (Essay on the Principle of Population) Macmillan, London, 1966
علماً بأن الطبعة الاولى للكتاب كانت في العام ١٧٩٨ وأعيد طبعه عام ١٩٢٦.
- (15) لدراسة علمية تحليلية نقدية حول المalthوسية والمalthوسية الجديدة يفضل الرجوع إلى: رمزي زكي (المشكلة السكانية وخرافة المalthوسية الجديدة) سلسلة عالم المعرفة، العدد ٨٤، ١٩٨٤.
- (16) للتفصيل راجع الفصل الأول من كتاب:
Richard Peet and Michael Watts (Liberation Ecologies: Environment, Development and Social Movements) 2nd ed., Routledge, N.Y. 2004, and first ed. 1996.

(17) رمزي احمد الزهراني (الاتجاهات الفلسفية للدراسات الجغرافية البشرية من ابحاث الندوة الرابعة لاقسام الجغرافية بجامعة المملكة العربية السعودية التي عقدت في جامعة ام القرى بمكة المكرمة للفترة ٢٤-٢٦/١٩٩١، ص٥٠٣-٥٠٥.

(18) Richard Peet and Michael Watts, Op. Cit., 1996, P. 46.

* يعرف الخطاب Discourse بأنه طريقة مشتركة لادراك أو فهم العالم. انه متضمن في اللغة وانه يُمكن اولئك الذين يشتركون به من تفسير مقادير ضئيلة من المعلومات ووضعها معا في تفسيرات أو دراسات متماسكة. والخطاب تجميع معين لمقولات ومفاهيم وافكار تنتج وبعاد إنتاجها وتمثل وتحوّل في مجموعة معينة من التطبيقات. انه يساعدنا على فهم كيف الناس يفسرون ويخلقون الواقع. وكل خطاب يعتمد على افتراضات، واحكام، وجدالات التي توفر المصطلحات الأساسية للتحليلات، والمناقشات، والاتفاقات والاختلافات في المجال البيئي وليس في مجال اخر:

Susan Mayhew and others (A Dictionary of Human Geography) 3ed ed., Oxford University Press, Oxford, 2004, P. 150.

(19) للتفصيل ينظر: الفصل الثاني من المصدر رقم ١٨.

(20) Diane Rouchelleau, B. Thomas- Slayter and E. Wangari (Gender and Environment: A Feminist Political Ecology Perspective) in Diane Rouchelleau, B. Thomas- Slayter and E. Wangari "eds" (Feminist Political Ecology: Global Issues and Local Experiences) Routledge, London, 1996, P. 13.

(21) B. Agarwal (The Gender and Environment Debate: Lessons from India), Feminist Review, 1992, No. 18, P. 156.

(22) مايكل زيمرمان (الفلسفة البيئية: من حقوق الحيوان إلى الايكولوجيا الجذرية) ترجمة: معين شفيق رومية، ج٢، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٣٣٣، ٢٠٠٦، ص١٢٣.

(23) المصدر نفسه، ص١٥٢-١٥٣.

(24) المصدر نفسه، ص٣٣.

(25) A. Sallah (Ecofeminism as Politics: Nature, Marx and the Postmodern) Zed books, London, 1997, P. 6.

نقلا عن عبد الله بن جمعان الغامدي (التنمية المستدامة بين الحق في الاستغلال الموارد الطبيعية والمسؤولية عن حماية البيئة) قسم العلوم السياسية، جامعة الملك سعود، الرياض، ٢٠٠٧، ص٢٤.

(26) عبد الله بن جمعان الغامدي، المصدر نفسه

(27) I. Wallerstein (The Modern World- System: A Capitalist Agriculture and the Origin of the European World- Economy in the Sixteenth Century) Academic Press, N.Y, 1974.

(28) لمزيد من التفصيل حول نظرية فالرشتاين وتقسيم العمل الدولي التقليدي والجديد باللغة العربية ينظر: صالح ياسر حسن، (العلاقات الاقتصادية الدولية)، دار الرواد المزدهرة، بغداد، ٢٠٠٦.

(29) بيتر تايلور وكولن فلنت، (الجغرافيا السياسية لعالمنا المعاصر، الاقتصاد العالمي، الدولة القومية، المحليات)، ترجمة: عبد السلام رضوان، اسحق عبيد، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٨٢، ٢٠٠٢، ص٥٨-٥٩.

(30) حول بداية دور الاقتصاد السياسي في التحليل الجغرافي السياسي يمكن الرجوع إلى:

Paul Claval (The Coherence of Political Geography: Perspectives on its past Evolution and its Future Relevance) in Peter Taylor and John House "eds" (Political Geography: Recent Advances and Future Directions) Groom Helm, London, 1984, PP. 8- 24.

(31) ينظر حول هذا الجدل:

-Peter A. Walker (Political Ecology: Where is the Ecology) Progress in Human Geography, 2008, 29, pp. 73-82.

- L.L Geson, S. Paulson and M. Watts (Locating the Political in Political Ecology: An Introduction) Human Organization, 2003, 62, pp. 205-217.